الترك والشورى

الاستاذ ڤمبري كاتب سياسي مشهور وهو مجري واستاذ اللغات الشرقية في كلية بودابست ومما اشتهر به دفاعه عن مصالح الانكليزية في الشرق وقد قابل جلالة السلطان عبد الحميد مرارًا وحادثه في شؤون السلطنة العثمانية وسياسة حكومته ونشر خلاصة احاديثه في الجرائد فكنا ننقلها لقراء المقتطف في حينها . والمقالة التي نحن بصددها مترجمة عن مجلة القرن التاسع عشر . قال

أشرت في مقالة سابقة نشرت في هذه المجلة الى تنبه الترك كما يستدل من كتابات شتى بقلم بعض نبغائهم وخصوصًا كتاب اسفار كتبهُ محمد فاتح غمّاني وسماهُ " رحلة الى القرم " . وبعد كتابة تلك المقالة طرأ على علاقة ممالي روسيا بدولتهم تغيُّر جوهريٌّ على اثر المنشور الذي نشرتهُ الحكومة الروسية في ١٧ اكتوبر الماضي ومنحت فيهِ حقوقًا دستورية لجميع الروس على اختلاف مللهم وتعدُّد نزعاتهم ففتحت بذلك للمسلمين وسائر الاسيويين من رعاياها مجالاً للظهور بعد أن أتت عليهم القرون وهم محجوبون بحجب الخفاء والنسيان . ولما كانت روح العصر الحاضر تقضي على كلّ منا بمراقبة كلّ تغيير اجتماعيّ وسياسيّ يطرأ على طوائف البشر القريبة منا والبعيدة عنا فلا غنى لسياسيّ الانكليزي عن الوقوف على احوال ملة يرتع الفريق الاكبر منها في ظلّ الراية الانكليزية وعن معرفة نتيجة الدستور الجديد الذي منحتهُ روسيا لرعاياها

فهذا السبب وغيرهُ من الاسباب حملني على الانتباه لتصرُّف الترك بعد صدور المنشور المشار اليهِ فادهشني ما رأيتهُ على تلك الطائفة الثبتة الجانب القليلة الدعوى من ادراك كنه المنشور تمام الادراك ومقابلتهِ بجنان ثابت وجاش رابط . فان المطّلع على الشروح والحواشي التي علقتها جرائد الترك على الدوما الامبراطورية (مجلس النواب الجديد) يخيَّل لهُ ان الترك الذين كنا نعدُّهم عنوان الخضوع والعبودية قد تمرَّسوا بجميع فنون الشورى واساليبها وتعودوا الاحكام الشورية منذ أمد مديد . فانهُ لم يكد امر المنشور القيصري يذيع ويشتهر حتى قرَّ قرارهم على عقد اجتماع عموميّ لبحث في ما يصلونهُ بازاء ذلك المنشور فعقد مندوبوهم اجتماعًا في السادس من يناير الماضي في بطرسبرج . وكان الاجتماع برئاسة امام مشهور بينهم يؤيدهُ جماعة من شبّان النشأة الحديثة الذين شهروا حربًا عوانًا على اهل التقليد من ائمة الدين على ان جميع احزابهم يد واحدة في الشؤون السياسية فتراهم ينادون بالالفة والاتحاد

تارةً بلسان جرائدهم وطوراً بلسان رجال منهم يتطوعون للخدمة في اقصى البلدان الاسلامية. وبالامس قرأت في جريدة نثرية تقرير مسلم قصد جزيرة سخالين لنشر روح الالفة والاتحاد بين المجرمين المسلمين المنفيين اليها. فالاتحاد شعار النثر من رعايا القيصر واليهِ ينسب تيقظهم الحديث. وبينما ترى سائر المسلمين يوجهون همهم الاول الى المسائل الدينية ترى همّ النثر الاول المحافظة على قومهم وتطهير لغتهم من الكلمات الدخيلة روسية كانت او عربية او فارسية واستبدال تعاليم اهل التقليد ومناظراتهم العقيمة بالعلوم الغربية الحديثة

ومن اهم ما يشاهد بينهم مقاومتهم للطريقة المعروفة باسم طريقة الكي نسبة الى صاحبها. وهي طريقة استنبطها الاستاذ الكي الروسي من مشاهير المستشرقين في اواسط القرن الماضي لجعل النثر روسيين كرهاً. ومآلها استبدال حروف الهجاء العربية التي يستعملها النثر بحروف الهجاء الروسية ظناً منهُ ان ذلك يسهل التعليم الابتدائي في مدارس النثر ويدخلهم اخيراً في مذهب الارثوذكس فأسقط في يدهم. ذلك انهم صبروا على مضض الضيم والاكراه صبر المسلّم لحكم الاقدار حتى اذا صدر المنشور القيصري ثاروا على طريقة الكي ومؤيديها من الروس وفي طليعتهم رجل اسمهُ الاستاذ بودياوشش. وفي جملة ما خاطبوهُ بهِ قولهم "اذا كان الروسي يحبُّ لغتهُ ويفتخر بها فنحن النثر نحب لغتنا ايضاً. وان كنا قد اهملناها في الماضي فسنكثر عن اهمالنا لها في المستقبل". ومن الذين قامت قيامتهم عليهِ لهذا السبب عينهِ موظف روسي اسمهُ شريفانسكي فان اهالي اقليم زايسان رفعوا عريضة الى الكونت ويت وطلبوا فيها ثلاثة امور وهي اولاً ان لا يسلم زمامهم الى الموظف المذكور. وثانياً ان يعدّ قرارهُ الذي نشر في جريدة روس الروسية في شأنهم ملغىً. وثالثاً ان يستبدل برجل مسلم

أليس من العجب ان هؤلاء الاقوام الذين يعدّون اكثر اهالي اواسط اسيا استمساكاً بالقديم يطلبون طلباً مثل هذا. والعجب منهُ ان بعض قبائلهم ارسلوا تلغرافاً الى القيصر التمسوا فيهِ ان يسمح لهم بارسال مندوبين من قبلهم الى الدوما وان يكون نواب الديانة الاسلامية في المجلس القيصري من المسلمين لا من المسيحيين كما هي الحال عليهِ. وأرسلت عريضة الى الحكومة طلب فيها اصحابها تعيين ايمة في الايات المسلمين من الجنود الروسية وقالوا انهُ كان لتلك الجنود فيما مضى ايمة يهتمون بشؤونها الدينية. فان كانت تلك الجنود وعددها ٤٠ الفاً في زمن السلم مستعدة لتضحية نفوسها في سبيل القيصر والوطن فليس من العدل ان تترك بلا ايمة. فسلم البرنس ميخائيل الكسندروفتش هذه العريضة الى القيصر

فاجاب قائلاً " سانظر في هذا الامر بنفسي ويكون جنودي المسلمين أيتهم "

ولما كنا قد اعتدنا ان نرى التتر اذلاء مستضعفين فلا يسعنا الاَّ التعجب مما نقرأهُ سيفي جرائدهم من دلائل العزم والثبات المقرونين احياناً بالوعيد اللطيف . كتب تتري نجب لوطنهِ رسالة الى جريدة " الوقت " التترية التي تصدر في اورنبرج يقول :

" نحن مسلمي روسيا وعددنا ٢٥ مليوناً (وفي الاحصاء الرسمي الذي جرى سنة ١٨٩٧ لا يزيدون على ١٣٨٨٩٤٣١ نفساً) استسلمنا للاقدار وعشنا عيشة هادئة مئات من السنين . ولا يكاد يمكن ان صبرنا واحتمالنا وخضوعنا وولاءنا تذهب سدًى بل اننا نعتقد كل الاعتقاد ان مزايانا هذه لا بدَّ ان يُعترف بها الاعتراف الواجب . ولقد كان دأبنا اطاعة القانون وعدم التعرُّض لشؤون الاحكام في البلاد وحتو رقابنا للاوامر والنواهي القيصرية . وفي هذا الزمان زمان الثورات التي تأجج نيرانها في جميع انحاء روسيا ولا نسمع فيها بغير القتل والحرق والنهب وقذف القنابل تراانا نحن المسلمين محافظين على السكون لا نختار الى حزب من الاحزاب بل نصبر على الضيم آملين ان صبرنا وطاعتنا لا يذهبان سدًى . ومتى سمعنا الحكومة تقول للبولنديين واليهود والكاثوليك انكم ستنالون العدل والحرية والاصلاح ولكن على شرط ان تلزموا السكينة اذ لا يمكن اجراء اصلاح والبلاد ثائرة فائرة — نقول في انفسنا نحن هادئون مسالمون لا نقوم بثورة فلا بدَّ ان تساوينا الحكومة بسائر ابناء وطننا من الروس الذين تشاطرهم جميع الاحمال والواجبات . أفيجب احد وهذه آمالنا وامانينا من بقائنا نحن المسلمين سائرين في طريق الطاعة التامة . فان القيام بالثورات لم يخطر لنا قطُّ ببال ولا أعرنا المنادين بها اذناً صاغية البتة حتى قال احد وزراء السلطنة حديثاً لاحد وفودنا قولاً أصاب بو كبد الصواب وهو ان لا محلَّ للشرّ في نفوسكم ولن يجد اليها سبيلاً "

وكتب غيرهُ في عدد آخر يقول :

" منذ صدور المنشور في ١٧ اكتوبر تفتحت الاقفال التي كانت على افواهنا وحلَّت الاغلال التي كانت تغلُّ ايدينا وفكت القيود من ارجلنا وزالت الاحزان من قلوبنا . وأصبح الآن كلٌّ يقول ويكتب ما يشاء وأُنقذنا من عبودية وظلم واستبداد طال العهد بها . . . . ثم اننا نحن المسلمين نعدُّ بعد الروس أعظم عناصر السلطنة عدداً لاننا اخوتنا في الجنس والمذهب منتشرون في سيبيريا واسيا الوسطى وشمالي روسيا وجنوبيها . ومع عظم عددنا ترى شأننا منحطاً وحقوقنا مضمحة ولا يد لنا في الاحكام وتراانا نعدُّ غرباء واعداء البلاد بسبب احكام شرعنا وعاداتنا الخ "

وعلى هذا النسق ترى النثريين ظلاماتهم ويشكون من جور الزمان الماضي . وجهد ما يسعون اليه التأليف بين العناصر والطوائف المختلفة التي من الاصل التركي . واعظم الوسائط التي اتخذوها لبلوغ تلك الغاية التقريب بين لغة الاتراك القاطنين جوار القوقاز ولغة الاتراك القاطنين اسيا الوسطى والسلطنة العثمانية بحذف الاصطلاحات المحلية من لغة الاولين واستبدالها بكلمات تركية عثمانية . ومنها ان كتّاب النثر العصريين يعنون باجتناب الكلمات العربية والفارسية والروسية الدخيلة في كتاباتهم ويضعون مكانها كلمات تركية الاصل . فهم بذلك ارقى حالاً من هذا القبيل من اخوانهم في تركيا وايران والهند . وقد ارتقت الصحافة عندهم ارتقاء عجيباً في السنين الاخيرة فأنشأ اسمعيل جسبارنسكي سنة ١٨٧٩ جريدة ترجمان وبعد ذلك بثماني سنوات أنشئت جريدة اكنجي اي الفلاح . ولكن ما كاد الدستور الروسي الجديد يشتهر امره حتى صدرت جرائد النثر الجديدة بالعشرات وهاك اسماء بعضها : يلدز (الكوكب) في تزان . الارشاد في القرم . تزان تخبري في تزان . الترقي في تشقند . النور والالفة في بطرسبرج . الوقت في اورنبرج . الحياة وضياترقاسية في تفليس . ازاد (الحرية) والعصر الجديد في تزان . الحياة في باكو[1] وغيرها كثير . وكلها تمتاز بحرية القول وصدق اللهجة واصالة الرأي . ومن امثلة الميل الى الحرية والرغبة الحقيقية في الارتقاء مقالات شديدة الوطأة على تعصب اهل التقليد يعيّرون فيها انهم اعظم العثرات في سبيل التمدن الحديث . ومنها مقالة من قلم سيدة نثرية وفي مما لا يرى لهُ مثيل في بلد من البلدان الاسلامية حتى الهند . قالت

" حتام نقاسي الازدراء بنا وعدم الاكتراث لشؤوننا . فان رجالنا يمرحون ليل نهار في الخلاء ونحن محبوسات في غرف ضيقة لا يتجدد فيها الهواء . وهم لا يهتمون بتربية الاولاد وتعليمهم بل يقضون اوقاتهم في الحدائق الغناء والملاهي وغيرها من الاماكن التي لا نعرف عنها الا بالسماع . اما نحن النساء فقد حتم علينا ان نعتني بالاولاد وتمريضهم في امراضهم ولا نذوق طعم الراحة ليلاً ولا نهاراً ولا يسوغ لنا طعام ولا يطيب منام . والرجال يدخلون جميع المدارس ويتعلمون انواع العلوم ويقرأون جميع الكتب والجرائد فتستنير بصائرهم وتنشرح صدورهم واما نحن نساء النثر المسكينات فمحرومات كل تعليم وتهذيب وعلى ذلك نقضي العمر في الالم والحزن بلا سلوى ولا رجاء

(١) [المقتطف] ترى في الاسماء المتقدمة ان أكثرها عربي فاصحاب تلك الجرائد لا يستغنون عن العربية حتى في اسماء جرائدهم

" اكتب هذه الكلمات والتار تقطر من يؤادي يا ايها الرجال اذكرونا نحن النساء المسكينات وانتم تتمتعون بالحياة ولا تنسونا بل عنونا بعض شيء لاننا ان لم نكن متعلمات فكيف نستطيع ان نسلك السلوك اللائق بنا نحوكم انا لا نستطيع ذلك بل لا بد ان نظهر في اعينكم خلوًا من كل ظرف وحب وجاذبية . أليس هذا هو السبب في ان كثيرات من النساء الروسيات المتعلمات يخلبن ألباب رجالنا ويخطفنهم من ايدينا ولا نجسر على رفع اصواتنا . افتظرونا ايها الرجال خاليات من كل شعور وعاطفة وحب ... فاعطونا حقنا من الاكرام وعنونا وانصفونا والاَّ ضعف رباط الالفة بينكم وبيننا "

فلا نتقدم كافٍ لاقناع القارىء بان هؤلاء التتر الهادئين المسالمين الآن الذين هم سلالة قوم اشتهروا بالحرب والكفاح سيفي قديم الزمان مستعدون تمام الاستعداد لنيل الحقوق الدستورية التي تضمنها المنشور القيصري . وان ما اظهروهُ من الغيرة والحمية مدة انتخابات الدوما وما يظهرونهُ من السهر والاهتمام في كل انتخاب قد ادهشني جدًّا كما لا بدَّ ان يدهش كل انسان يعرف جمود التتر . واماني الآن خطب كثيرة خطبها جماعة منهم ايام الانتخاب وهي موسومة باعتدال اللهجة لا تطعن فيها ولا تعرض قبيحًا باحد من المرشحين المسيحيين . ولدفع كلّ شبهة عنهم تستعمهم يكثرون من ذكر روسيا ويلقبونها وطنهم

ومما هو من الغرابة بمكان ان كثيرين من المرشحين للانتخاب هم من العلماء والائمة والخوجات الذين يحسنون الروسية فلا بدَّ ان يدهشوا سائر اعضاء الدوما . ومن هؤلاء ابو السعود افندي ولد سنة ١٨٤٣ وتقلب في منصب القضاء في كثير من الولايات الروسيَّة. ومنهم شاه حيدر افندي وهو من المتضلعين في العلوم الحديثة وعلوم الدين الاسلامي وآداب العربية والفارسية . وصاحب زاده دولة شاه وجمال الدين ملاَّ وكلهم من الاغنياء . انتهى

هذه خلاصة ما كتبهُ الاستاذ قبيري في هذا الشان . ويظهر لنا نحن ايضًا مما اطلعنا عليهِ من كتابات مسلمي الروس ومن اقبالهم على مطالعة المجلات العلمية انهم باذلون جهدهم في اقتباس انوار العلوم والفنون والجري على خطة المتنورين في ترك التقليد ومجاراة احوال الزمان جارين على مقتضى الحديث القائل " ما كان من امر دينكم فاليَّ وما كان من امر دنياكم فانتم اعلم بهِ " . الناس يسمون هذا السعي ويواظبون عليهِ لا بدَّ من نجاحهم عاجلاً او آجلاً ولولا اضطراب الاحوال في روسيا لترجَّح لهم النجاح العاجل